

## مبدأ مقاومة الطغيان : دراسة في الفكر والنظرية السياسية للإسلام

نيفين عبد الخالق مصطفى

كلية الاقتصاد والعلوم السياسية - جامعة القاهرة

درجت التقاليد الفكرية الغربية على ان تتابع تاريخ الفكر السياسي مسقطة من حسابها الخبرة الاسلامية كحلقة مميزة في تطور متتابع ، ومبرزة كيف انطلقت كافة الاتجاهات الفكرية الانسانية من بوتقة الحضارة الاغريقية والفكر اليوناني<sup>(١)</sup> ولقد اعتمدت النظرة التقليدية للمستشرقين وغيرهم من المفكرين الغربيين على تصوير الحضارة الغربية على أنها حضارة «الحرية» ، وفلسفتها هي فلسفة «الصراع» في سبيل تأكيد قيم التفوق والنبوغ الفردي ، وأنها بذلك بعيدة كل البعد عن العالم الشرقي الذي طبعوه بنظريته في «الاستبداد الشرقي» ، تلك النظرية التي صورت مجتمعات الشرق على أنها لا تعرف سوى نموذج السلطة الاستبدادية .

ثم جاءت عديد من الدراسات لتحمل «الاسلام» النصيب الأوفى من مسؤولية هذا الركود والتخلف والاستبداد المنسوب لمجتمعات الشرق،<sup>(٢)</sup> وتزخر مثل تلك الدراسات بالعديد من الحجج التي تدعم هذا التصور والتي تستند على عدم معرفة الخبرة التاريخية الاسلامية في الممارسة السياسية لفاهيم مثل : التصويت ، كأسلوب من أساليب الممارسة الديمقراطية ، والمجالس النيابية ، كتعبير نظامي عن الإرادة الشعبية . ايضا ، الضمانات الشعبية او النظامية لحماية الحريات الفردية،<sup>(٣)</sup> ليس هذا فحسب ، بل ان بعض الدراسات الاخرى تأتي لتضيف ، إلى ما سبق ، القول بأن الحضارة الاسلامية لم تعرف معنى المعارضة كتكتل جماعي يستطيع ان يقف في مواجهة الطغيان .

وبذلك دأبت النظرة المستشرقية لمجتمعات الشرق الاسلامية على أن تنظر إليها على أنه لم تنبه ولم تثر بواسطة ثورات «برجوازية» ناجحة . وهي بهذا محصورة في حالة متوسطة او انتقالية بين ما يسميه البعض «المجتمع الصناعي» الذي يمثل «الجنة النفعية في تناغم وتناسق اجتماعي ، ويصاحبه نمو صناعي ، وتأكيد على قيم الفردية»<sup>(٤)</sup> وبين ما يطلق عليه «المجتمع المحارب» : حيث

تعوق الحاجة إلى الكفاءة العسكرية والحربية مبادرات الأفراد في مجال الأعمال، وتعوق وجود الحقوق الديمقراطية. وبذلك فإن أخرج ما تفتقده مجتمعات الشرق الإسلامية في تطورها من وجهة النظر هذه هو: البناء الثوري الفكري، والتنظيم الاجتماعي، والمؤسسات السياسية<sup>(٥)</sup>.

وهكذا يبرز هؤلاء كيف أن تطور المجتمعات الغربية نحو القيمة الديمقراطية هو محصلة ثقافة ثورية وتنظيمات سياسية استطاعت أن تحول المعارضة الوجدانية الداخلية إلى تعبير حركي، ورد فعل سياسي جذري، ومن ثم فإن الثقافة الغربية الديمقراطية ينظر إليها على أنها تجسد وتنمي حقوقاً واضحة للمواطنين في مقاومة الطغیان أو الحكومات الفاسدة، وذلك في الوقت الذي ينظر فيه إلى الفكر الإسلامي والمفاهيم الإسلامية على أنها تفتقد إلى إضافات ثورية أو ديمقراطية، بل على العكس - وفقاً لهذا الرأي - أنها تتسم «بشخصية غير ثورية»<sup>(٦)</sup>.

وبذلك فإن باحثين مثل «برنارد لويس»، و«فاتيكيوتس» يتفقان على أن المبدأ الغربي في حق مقاومة الطغیان هو مبدأ غريب ومغاير للفكر الإسلامي، وأنه بدلاً منه فإن هناك مبدأً إسلامياً يتعلق بواجب مقاومة «الحكومات غير النقية»<sup>(٧)</sup>. وأن هذا الواجب لم يقدر له أن يكون ذا فاعلية حقيقية لأن الفقهاء لم يحدث أن قدموا معياراً واضحاً وعملياً ويمكن ممارسته، والذي يمكن عن طريقه اختبار درجة تقوى الحكومات، ثم أنه لم يوجد أي جهاز مؤسس يمكن عن طريقه فرض الحق بالقوة في مواجهة الحكام «غير النقياء». وبذلك يرى هؤلاء أن «واجب الطاعة» ظل ينتشر ويحيط فوق حق المقاومة هذا. وكان محصلة ذلك أن خيم جو من المحافظة والهدوء السياسي على الحكومات الإسلامية لقرون عدة. وأن «المعارضة» نظر إليها على أنها تمثل تهديداً خطيراً للنسيج الاجتماعي «لدار الإسلام». ومن أجل حماية المجتمع من التهديد المزدوج المتمثل في «الفتنة» وما تسببه من تمزيق النظام الاجتماعي، و«البدعة» وما تمثله من انحراف عن «السنة». لذلك فإن «المحافظة» يجب أن تفرض في جميع الأحوال. وبذلك انتهى «فاتيكيوتس» و«برنارد لويس» إلى أن الطبيعة غير الثورية وغياب مبدأ مقاومة الطغیان - الذي عرفه التطور الديمقراطي الغربي - بالنسبة لمجتمعات الشرق لا يعود إلى الخبرة التاريخية الخاصة بالشرق ولا إلى الأساس الاقتصادي له، ولا إلى تكوينه الطبقي، ولا إلى الظروف العالمية والدولية والمحلية، ولكن ببساطة شديدة إلى «الأيديولوجية الإسلامية في الحفاظ على الحكومات القائمة وإلى عقيدة الإسلام في الحفاظ على الأمر الواقع للحكام»<sup>(٨)</sup>.

ولم يقتصر هذا التشويه التاريخي على محاولة تجريد الخبرة التاريخية الإسلامية من أي محتوى ديمقراطي أصيل مستمد من تقاليدھا الذاتية، بل إن التقاليد الاستشراقية الكلاسيكية قد دعمت دراستھا للإسلام بتصور آخر يصفون عن طريقه التكوين الاجتماعي الإسلامي بأنه يأخذ شكل الوحدات المنفصلة المرتبة رأسياً. وفي مؤلف «جب وبوين» عن «المجتمع الإسلامي والغرب»<sup>(٩)</sup> تبرز بوضوح وجهة النظر الاستشراقية المحدثّة في أن المجتمع الإسلامي لا يأخذ شكل الوحدة الاجتماعية المتداخلة بل أنه يمثل نوعاً من التكوينات الفسيفسائية المنعزلة والمدعمة ذاتياً والتي ضاعف منها ذلك الاعتراف الإسلامي بالأقليات الدينية سواء من أهل الكتاب: كالنصارى، واليهود أو غيرهما، وبذلك يبرزون مدى الشعب الاثنى (السلالي) لتكوين الشعب الإسلامي،

ويصلون من هذا إلى نتيجة هي أنه بسبب هذا التشعب الداخلي للنظام الاجتماعي فإنه يصير من الصعب تنظيم معارضة ثابتة ومنهجية ومستقرة ضد أي طغيان أو تسلط .

والواقع أن الرد على هذه الادعاءات يقتضي منا أولاً تقرير حقيقتين هامتين :

الأولى : ان «الحكم» هو خطاب الله سبحانه وتعالى ، وبذلك فإن كل صاحب ولاية أو ذي سلطان في الجماعة الإسلامية يكون خطابه في حدود ما أمر الله به وما نهى الله عنه ، وبذلك تكون السلطة العامة في الاسلام مقيدة بالأحكام الشرعية .

الثانية : ان الشريعة تنظر إلى القائم بأمر السلطة العامة على أنه فرد قادر بما يتوافر له من أعوان ومال . وأي فرد يتمتع بهذه القدرة يكون مكلفاً تكليفاً مباشراً بالمصلحة العامة . وبذلك يتضح أن واجبا كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كتعبير عن مقاومة كل ما يخالف الشرع هو من أخص واجبات السلطة العليا (الحكومة) طالما ان ذوي السلطان اقدر من غيرهم على القيام به<sup>(١)</sup> وبالتالي اذا قصرت السلطة العليا عن القيام بذلك الواجب فإن هذا التقصير لا يعفى الفرد من قيامه به ولا سيما وان الشريعة تعطيه ولاية مباشرة في استعمال هذا الحق والواجب العام ، بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

والواقع ان البحث في الصلات القائمة بين الاسلام كعقيدة وشرعية ، وكحضارة وفكر وتاريخ وبين مبدأ مقاومة الطغيان والذي يصل في أقصى مداه إلى اندلاع الثورة كوسيلة لتغيير الأمر الواقع ، مثل هذا البحث تواجهه آراء عدة تنفي عن الاسلام وتاريخه انتصافه بصفة الثورية ، أو اقراره لمبدأ مقاومة الطغيان او الثورة ، وسوف نعرض لتلك الآراء أولاً ، ثم نرد عليها ، واخيراً نوضح مشروعية مقاومة الطغيان والثورة في الاسلام ، استناداً على ادلة مستمدة من الكتاب والسنة .

أولاً : مبدأ مقاومة الطغيان في الميزان : في الواقع اذا نظرنا إلى تلك الآراء التي تنفي عن الإسلام اقراره لمبدأ مقاومة الطغيان والثورة عليه ستجد انها تنتمي إلى فئتين مختلفتين إلا انها تهدفان إلى تحقيق نتيجة واحدة وهي : نفي للعلاقة بين الاسلام وبين هذا المبدأ .

وبالنسبة للفئة الأولى نجد ان دافعها الأساسي إلى اتخاذ موقف الرفض وعدم الإقرار لمبدأ «مقاومة الطغيان والثورة» هو العمل على تنزيه «الإسلام» عن الاتصاف «بالثورية» التي هي تعبير عن سلوك ونشاط انساني يحتمل الخطأ والصواب ، ومن ثم ينبغي عدم تحميل نتائجها على الاسلام . ومن ثم فإن المنتمين إلى هذه الفئة يرون ان إحداث التغيير المطلوب في المجتمع لا يكون عن طريق الثورة ، وإنما يفضل عليها - من وجهة نظرهم - القيام باصلاحات وتقويم للوضع القائم دون محاولة تغييره باتخاذ مسلك الثورة . ومن ثم فإن هذه الآراء تنظر إلى الثورة على أنها مسلك غير مفضل ، بحيث انها لو حدثت فإن موقفهم إزاءها يتسم بالنظر إليها على أنها أمر واقع . ولذلك وجدنا من بين تلك الآراء من يتحدثون عن الثورة باعتبارها «واقعة حدثت» و«نازلة» يسلم بها المؤمنون الذين امتحنوا بها ، ولهم أجر الصبر على معاشتها . . . وفي أحسن الحالات فإنهم ينظرون إليها كمحظور ومحرم تبجيحه الضرورة<sup>(٢)</sup> .

ويتفق مع تلك الآراء موقف معظم مؤرخي التاريخ الاسلامي المعروفين، حيث يكادون يجمعون في تاريخهم للحركات التي اتسمت بطابع «الثورة» والتي عرفتها المجتمعات الإسلامية في عصور مختلفة، على أن تلك الحركات كانت «خروجاً على أولي الأمر» وأن القائمين بالثورة هم «عصاة». ومن ثم فإن تناول مبدأ الثورة عند هؤلاء قد اتسم باستخدام تعبيرات لها دلالتها غير المفضلة إسلامياً، مثل: «الفتنة» و«البدعة» و«التطاول» و«الخروج عن الجماعة». ومن ثم يعد نجاح الثورة في نظر تلك الآراء بمثابة «الكارثة» و«النازلة» التي يبتلى بها المسلمون كمحنة عسرة<sup>(١١)</sup>.

وبالنظر إلى موقف مؤرخي الفرق الإسلامية سواء من الخوارج أو الشيعة أو من جمهور المسلمين المعروفين بأهل السنة، فيلاحظ أن موقفهم من الثورة قد تميز بطابع التفسير الديني والمذهبي. وانطلاقاً من اقتران الثورة بمذهب الخوارج ومبدهم في «الخروج»، فقد كانت نظرة مؤرخي أهل السنة وكذلك الشيعة (ما عدا فرقههم التي تبنت هذا المبدأ) إلى الثورة تتسم بنعته بصفات «المروق» و«البغي» و«العصيان». وذلك بعكس نظرة الخوارج إلى نفس ذات المبدأ، حيث اعتبروه الطريق الصحيح لإعادة الحق إلى أصحابه<sup>(١٢)</sup>.

ومن ثم فإن تناول الثورة في التراث الاسلامي اتسم بالتأثر بالاختلافات المذهبية الأمر الذي انعكس على الموقف منها وجعله يتسم بطابع الرؤية المذهبية والتفسير الذاتي<sup>(١٣)</sup>. ويستثنى من ذلك موقف ابن خلدون عند معالجته للتاريخ فقد نظر إلى الثورة وفسرها على أساس صراع العصبية واستطاع من خلال ذلك أن يرسي مبدأ هاماً يتعلق بأن «الظلم مؤذن بخراب العمران»<sup>(١٤)</sup>.

وفي المقابل نجد مجموعة أخرى من الآراء التي تتفق مع آراء الفئة الأولى في نفي العلاقة بين «الاسلام» ومبدأ مقاومة الطغيان والثورة عليه، ولكنها تقف منها موقف الضد من حيث الدافع والهدف وراء ذلك النفي. فبينما اتخذ ذلك عند أصحاب الفئة الأولى طابع الدفاع عن الاسلام وتنزيهه عن الاقتران «بالثورة» نجد أن المنتمين للفئة الثانية يهدفون من آرائهم إلى إلصاق صفة العجز والركود على المجتمعات الإسلامية وتحميل «الاسلام» مسؤولية تخلف تلك المجتمعات وشتى أنواع معاناتها. وإلى هذه الفئة تنتمي معظم كتابات المفكرين الغربيين عن الاسلام ومبدأ مقاومة الطغيان. حيث ينظر عادة إلى ثورات المجتمع الغربي على أنها محصلة ثقافة ثورية وتنظيمات سياسية فعلية، بينما ينظر إلى المجتمعات الإسلامية على أنها قد عرفت حركات وصراعات سياسية إلا أنها تمثل استجابات غير ثورية تتخذ شكل التمردات والانقلابات دون أن تعبر عن أي ثقافة ثورية حقيقية<sup>(١٥)</sup>.

ومن ثم تصف هذه الفئة من الآراء المجتمعات الإسلامية بأنها تفتقر إلى «الشخصية الثورية» التي تعبر عن مفهوم أصيل لمقاومة الطغيان و«الثورة» التي يعرفها بعضهم بأنها: «عمل سياسي موجه أساساً ضد حالة الوضع القائم ومؤسس على ايدولوجية ثورية تحقق تغييراً جذرياً وشاملاً للهيكل الاجتماعي القائم»<sup>(١٦)</sup>. ولذلك فإن المجتمعات الإسلامية وفقاً لوجهة النظر هذه لم تعرف المبدأ الغربي القائل بحق «مقاومة الطغيان»، وإنما عرفت فقط مبدأ إسلامياً يتعلق

«بواجب مقاومة الحكومات غير التقية»، وهو ما يعيد إلى اذهانهم «صورة تاريخية مسيحية قديمة»<sup>(١٨)</sup>.

والواقع ان النظرة إلى تلك الآراء التي تنكر على الإسلام وعلى المجتمعات الاسلامية الاقتران بالشورة توضح أنها - في مجملتها - تخضع لأحد دافعين : فبالنسبة للفئة الاولى نجد ان الدافع وراء آرائها المنكرة والمستنكرة «للشورة» إنما يكمن في التأثير المذهبي بالرفض لمذهب «الخوارج» ومبدهم في «الخروج». ومن ثم اتخذ الهجوم على هؤلاء - في أحد صوره - محاولة للنيل من مبدأ «الخروج» والشورة - الذي يقوم عليه فكر الخوارج ومذهبهم .

أما الفئة الثانية فان دافعها الأساسي هو الصاق صفة العجز والجمود، وارجاع كافة مظاهر التخلف الذي تعاني منه كثير من المجتمعات الاسلامية الى الاسلام .

وبالنظر إلى الآراء المنتمية للكتابات الغربية فانها قد تعرضت للنقد من جانب بعض الباحثين الغربيين الآخرين<sup>(١٩)</sup>. ولقد اعتمد منهجهم في دحض هذه الآراء التي تنسب إلى المجتمعات الاسلامية الاتسام بالطبيعة والشخصية غير الثورية على عدة أسس : حيث في الأساس الاول تم توجيه النقد إلى نفس المصطلحات المستخدمة في تحليل العلاقة بين «الشورة» و«الاسلام» ذلك ان مصطلح «الثورة» لم يكن هو المصطلح الشائع في التراث الاسلامي للدلالة على تلك المعاني الخاصة بمحاولة تغيير الوضع القائم ومقاومة الطغيان . وإنما وجدنا مصطلحات اخرى شاركت مصطلح «الثورة» في الدلالة على تلك المعاني او على بعض منها، بل ان الواقع يثبت ان هذه المصطلحات كانت اكثر شيوعاً في التراث الاسلامي للتعبير عن حقيقة الثورة<sup>(٢٠)</sup>. ومن ثم فان الدراسات التي لم تحاول الخروج على مجرد بسط وتحليل «الثورة» كلفظ ومصطلح فانها تفتقر الى التفاعل الحي مع الظاهرة كما تعبر عن نفسها في البيئة والمحيط الذي تظهر فيه .

والواقع ان الآراء الغربية التي تصف المجتمعات الاسلامية بان لها «شخصية غير ثورية» إنما تعكس التأثير بوجهة النظر التي تنبع من نظرية «الاستبداد الشرقي» والتي اعلى اساسها ينظر الباحثون إلى الغرب على انه معقل التقدم والديناميكية<sup>(٢١)</sup>، بينما ينظرون إلى الشرق ومجتمعاته على أنه لا يعرف سوى الركود والثقافة الموروثة التي تفتقر إلى التفاعل الحي المستمر . وهذه الآراء تفتقر في الواقع - إلى دليل قوي يدعمها . ذلك انه بالنسبة «لحق مقاومة الطغيان» الذي تتذرع به بعض تلك الآراء والتي ترى ان المجتمعات الاسلامية لم تعرفه، فان هناك من الباحثين الغربيين من يرون هناك اقتراباً بينه وبين المبدأ الاسلامي الخاص «بعدم الطاعة في المعصية» هذا فضلاً عن ان الرغبة في التزام الهدوء والحفاظ على الوضع القائم لم تقتصر على «الاسلام» بل ان هناك عقائد اخرى قد دعمت منها<sup>(٢٢)</sup>. وبذلك يبدو امراً مجافياً للحياد العلمي تجاهل شتى انواع المتغيرات التي تؤثر على تعامل المجتمعات الاسلامية المختلفة مع مبدأ الثورة ومقاومة الطغيان وعزو هذا التعامل إلى خصائص خاصة بالاسلام ذاته فحسب .

ويتخذ الرد على تلك الآراء التي تصف المجتمعات الاسلامية «بالشخصية غير الثورية» - احياناً - صورة محاولة تطبيق مدركات التحليل الماركسي على هذه المجتمعات<sup>(٢٣)</sup> ومن ثم فان النقد

الموجه إلى تلك الآراء يدفع جانب منه الرغبة في تعامل تلك المجتمعات مع مدركات التحليل الماركسي<sup>(٣٤)</sup>. ومن ثم نرى أن التحليلات الغربية لموقف الاسلام من مبدأ الثورة إنما تعبر عن النظر إلى المجتمعات الاسلامية من زاوية تفتقر إلى التفاعل مع تجاربها الأصلية المرتبطة بتاريخها وتراثها<sup>(٣٥)</sup>، وبالعقيدة التي تهيمن على النتائج الفكرية والحركية الخاص بتلك المجتمعات. ومن ثم فإن دراسة الثورة ومقاومة الطغيان داخل نطاق الفكر الاسلامي إنما تكون من خلال التفاعل مع الأدلة المستقاة من اصول الشريعة والتي تدعم من مشروعية الثورة ومقاومة الطغيان والتي تناولتها الاتجاهات الفكرية الاسلامية المختلفة.

ثانيا : مقاومة الطغيان وادلة المشروعية : إن الاتجاهات الثورية الاسلامية التي عبرت عن حقها في مقاومة الطغيان من خلال «الثورة» قد استندت لبيان مشروعية قيامها بالثورة إلى أن القرآن الكريم قد أوجب على الامة متضامنة ومتكافلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكان استخدام «القوة» لتغيير المنكر أمرا واجبا كتفضيل اول وقد اصطلح على تسمية تلك القضية : «بقضية السيف»<sup>(٣٦)</sup>. واصحاب هذا الرأي يستندون إلى قوله تعالى : ﴿ولتكن منكم امة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر﴾ (آل عمران ١٠٤) وكذلك إلى قوله تعالى : ﴿كنتم خيرا امة اخرجت للناس، ثامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر﴾ (آل عمران ١١٠).

واصحاب الاتجاهات الثورية يرون انه اذا كان الامر بالمعروف قد يقف عند حد الدعوة بالتي هي احسن، فإن النهي عن المنكر يتجاوز هذا الحد إلى الفعل الكفيل بوقف المنكر وحجتهم في ذلك عديد من احاديث الرسول - ﷺ - مثل قوله ﷺ «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك اضعف الايمان»<sup>(٣٧)</sup>. ففي ذلك الحديث كما في غيره يكون تغيير المنكر «باليد» أي بالفعل وبالقوة مقدما على غيره من وسائل التغيير ومن هذه الأحاديث قوله ﷺ «لتأمرن بالمعروف، ولتنهين عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه»<sup>(٣٨)</sup> على الحق أطرا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض»<sup>(٣٩)</sup> وقوله ﷺ : «إذا رأيتم الظالم فلم تأخذوا على يديه يوشك الله أن يعصمكم بعذاب من عنده»<sup>(٤٠)</sup>. ولقد رغب الرسول ﷺ المؤمنين في أداء هذا الواجب بأن جعله من أفضل الجهاد، كما جاء في الحديث الشريف : «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»<sup>(٤١)</sup>. وقوله ﷺ : «سيد الشهداء : حمزة بن عبدالمطلب ثم رجل قام إلى امام جائر فأمره ونهاه فقتله»<sup>(٤٢)</sup>.

والاتجاه الفكري الثوري في الاسلام يدعم نفسه بغير ما سبق من آيات الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والاحاديث المدعمة لها، بعدد اخر من آيات القرآن الكريم التي تدعو الانسان إلى رفض الظلم والعمل على تغييره. «فالثورة» تضم بين معانيها «الهجرة من حال الاستسلام والسكون إلى حال التمرد والحركة، فهي هجران للركود ووثبة يتجاوز بها الانسان والمجتمع ذلك الوضع الجائر، والواقع الظالم ويستبدله بأخر أكثر اشراقا»<sup>(٤٣)</sup>، «فالهجرة» إذن لا ينظر إليها على انها سلوك سلبي يعبر عن مجرد الفرار والهروب، بل هي فعل ايجابي يعده اصحاب مدرسة الثورة واجبا، لان الذين لا يهجرون المجتمع الظالم لتغييره هم ظالمون لانفسهم، وفي ذلك يستندون إلى قوله تعالى : ﴿ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي انفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في

الارض قالوا ألم تكن ارض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا ﴿النساء ٩٧﴾ .

وبذلك نبين مدى تدعيم القرآن لقضية «الثورة» في مواجهة الظلم والطغيان ذلك انه حتى بالنسبة «للمستضعفين في الارض»، فان الله لا يعفيهم من مسؤولية التكليف بواجب التغيير للظلم . والمجرة احد وسائل هذا التغيير، ذلك انه اذا سلمنا بمنطق الاستسلام للقهر فان هذا الاستسلام «يعاكس ارادة الله سبحانه وتعالى تلك الارادة التي صاغها القرآن الكريم في اية يراها البعض وقد عبرت عن المعاني والطاقت الثورية»<sup>(١)</sup> وتلك هي قوله تعالى : ﴿ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين﴾<sup>(٢)</sup> ولا يؤثر في الاحتجاج بتلك الآية القول بأنها انما جاءت في معرض الحكاية عن قوم سابقين على ظهور الاسلام<sup>(٣)</sup> فعلماء الاصول قد قرروا ان «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب»<sup>(٤)</sup> . فالقصص القرآني انما جاء أساسا ليكون موطنا للعبارة والعظة التي يسوقها لنا من خلال قصص الأولين<sup>(٥)</sup> فالقصص القرآني يؤكد على ضرورة اتباع الجماعة للعدالة انطلاقا من وازع ديني اخلاقي والا فان قدرة الله كفيلة بقهر الظلمة<sup>(٦)</sup> .

وبتدبر آيات القرآن الكريم والغوص في معانيه يشير البعض إلى مصطلح قرآني له دلالة بالنسبة لمقاومة الطغيان والثورة كأسلوب من اساليب التغيير، وهو مصطلح «الانتصار» فالثورة وهي تعني «التغيير الذي يبدل حالا بحال وسادة بسادة ويستبدل واقعا باليا بآخر جديدا . . . هي في بعض جوانبها انتقام للمظلومين من الظالمين ، على تفاوت في درجات الانتقام ومواطنة»<sup>(٧)</sup> . ومن ثم فانه بالنظر إلى النصر على انه إغانة للمظلوم ، والانتصار على أنه انتصاف من الظلم وأهله وانتقام منهم - وهو ما يأتي في ذكر الانتصار في القرآن الكريم كفعل يأتيه الانتصار ضد الطغيان والبغي : «الذي هو للظلم والفساد والاستطالة ومجاوزة الحدود» لذلك يرى البعض ان «الانتصار» «ثورة» «الشوار» «أنصار» ، وأن الايات التي استخدمت مصطلح «الانتصار» تحمل دليلا على تأييد «الثورة» بمعنى التغيير والردع والانتقام من الظلم والبغي والاستبداد ويبلغ ذلك التأييد قمته حين يصير «الانتصار» هو احد الصفات الهامة للفرد المؤمن، فالمؤمن ينبغي له ان يكون «منتصرا» للحق ضد الظلم والاستبداد والقهر، اي ان المؤمن هو ثوري وثائر من اجل الحق وضد الظلم<sup>(٨)</sup> .

## الهوامش

(١) انظر مزيدا من التفاصيل في :

ERNEST BARKER, Greek Political Theory, London Methuen & Co Ltd, 1960 .

(٢) انظر أمثلة على تلك الدراسات مع مزيد من التفاصيل في :

ALBERT HOURANI, Europe and Middle East, London : The Macmillan Press, 1980 .

(٣) W. MONTGOMERY WATT, Islam and the Integration of : وانظر ايضا Ibid. PP. 6 - 12, 22 - 41 (٣) Society, London, 1970, P.27, 219 .

- (٤) انظر :  
BRYAN S. TURNER, *MARX and the End of Orientalism*, London : George Allen, 1978, P.67 .  
Ibid., P. 67. (٥)
- (٦) انظر : P.J. VATIKIOTIS (ed.), *Revolution in the Middle East and Other Case Studies*, London: George Allen & Unwin, 1972, P.LL.
- (٧) انظر : BRYAN S. TURNER, «Determinant Structures and Contingent Revolutions», *Review of Middle East Studies*, Number 3, London, 1978, P.3,4 .
- (٨) انظر : P.J. VATIKIOTIS, Op. Cit, P.II
- (٩) انظر : H.A.R. GIBB and H. BOWEN, *Islamic Society and the West: a study of the Impact of the Western Civilization on Moslem Culture in the Near East*, London: Oxford University Press, 1950, Vol. I, P. 159.
- (١٠) انظر : أبو الأعلى المودودي، الحكومة الإسلامية، ترجمة : أحمد أدريس، القاهرة دار المختار الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٩٧٧، ص ٨٥ .
- (١١) انظر : د. محمد عمارة، الإسلام والثورة، بيروت : المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٠، ص ٥، ٦ .
- (١٢) تتبع مثل هذه الآراء في أغلب كتابات المؤرخين المسلمين من أمثال : الطبري والبغدادى، وابن الأثير، والشهرستاني، والنويري وغيرهم . انظر أمثلة لأرائهم في : د. محمود اسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي : منهج وتطبيق . بيروت : دار العودة، ١٩٧٤، ص ص ٩٨-١٠٤ .
- (١٣) انظر : د. عمارة، الإسلام والثورة، مرجع سابق، ص ٣٣٣ وما بعدها .
- (١٤) من أمثلة ذلك ما يذكر عن تشيع المسعودي، وما يذكر عن تعصب المبرد للخوارج . انظر أمثلة على آراء الأول : في المسعودي، إثبات الوصية، ط طهران، ١٣١٨ هـ، ص ٢٤٠ وما بعدها . وانظر آراء الثاني في : المبرد الكامل في اللغة والأدب . ط . لبيز، ١٨٧٤ م، ص ٣٤ وما بعدها . وانظر رأي القاضي ابن العربي عن المؤرخين المذكورين في : القاضي أبي بكر بن العربي : العواصم من القواصم ط ٥، تحقيق : محب الدين الخطيب، القاهرة : المطبعة السلفية، ١٣٩٩ هـ، ص ٢٤٨، ٢٤٩ .
- (١٥) انظر : ابن خلدون، المقدمة (ط. لجنة البيان العربي) ج ٢، ص ٨٤٩ وما بعدها .
- (١٦) ALBERT HOURANI, Op.Cit, PP.6-16, 22-14
- (١٧) P.J.VATIKIOTIS (ed) *Revolution in the Middle East and Other Case Studies* OpCit, P.2
- (١٨) انظر : BERNARD LEWIS, «Islamic Concepts of Revolution» in: VATIKIOTIS (ed), *Revolution in the Middle East and Other Case Studies*, Op. City, PP. 30-40.
- (١٩) انظر أمثلة على ذلك في : BRYAN S. TURNER, «Determinant Structures and Contingent Revolutions» *Review of Middle East Studies*, Number 3, London, 1978.
- (٢٠) من هذه المصطلحات نذكر على سبيل المثال : «الفتنة»، «الخروج»، «والنهضة» «النهوض»، «الانتصار»، «الملحمة» . انظر مزيداً من التفاصيل بخصوص هذه المصطلحات في : د. عمارة، الإسلام والثورة، مرجع سابق : ص ص ٩-١٤ .
- (٢١) من أمثلة ذلك تحليلات ماكس فيبر عن المجتمع الإسلامي والتي مؤادها أنه ليست لديه دوافع «ديناميكية» قائمة على الفردية والإيجابية . والواقع أن مثل تلك التحليلات تفتقر الى الفهم الحقيقي لطبيعة هذه المجتمعات ولأصول الإسلام ذاته . انظر في تحليلات فيبر :
- BRYAN S. TURNER, *Weber and Islam: a Critical Study*, PP.121-154, London: Routledge & Kegan Paul Ltd, 1974.



(٢٢) من أمثلة ما يذكره «تيرنر» بشأن المبدأ الخاص بـ «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله». والذي يرى أنه يعطي انطبعا مشابها بأن هناك رغبة مسيحية في التزام الهدوء والمحافظة تشابه ذلك الطابع المحافظ المنسوب إلى الإسلام. انظر:

BRYAN S. TURNER, «Determinant Structures and Contingent Revolutions», Op.Cit. P.14.

(٢٣) تمثل كتابات «تيرنر» نموذجاً واضحاً على ذلك، حيث يهاجم في كتابه «ماركس ونهاية الاستشراق» الآراء التي من شأنها إعاقه تطبيق مدركات التحليل الماركسي على مجتمعات الشرق الإسلامية. انظر مزيداً من التفاصيل في: BRYAN S. TURNER, Marx and the End of Orientalism, Op.Cit, P.40.

(٢٤) وحدث لدى بعض الأعلام العربية محاولات وصفت بأنها تمثل اتجاهها يرمي إلى التفسير المادي للتاريخ الإسلامي. انظر مزيداً من التفاصيل في: محمد فتحي عثمان، التاريخ الإسلامي والمذهب المادي في التفسير، الكويت: الدار الكويتية للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٦٩، ص ٨ وما بعدها.

(٢٥) انظر: عثمان خليل، الديمقراطية الإسلامية، القاهرة: المكتب الفني للنشر ١٩٥٨، ص ٧.

(٢٦) يقصد بذلك استخدام العنف الثوري كسبيل للتغيير. ويستند في ذلك إلى الحديث الذي يرويه الصحابي حذيفة بن اليمان عن الرسول ﷺ: «قلت يا رسول الله: أياكون بعد الخير الذي أعطينا شر، كما كان قبله؟ قال نعم، قلت فيم نعتصم؟ قال: بالسيف». انظره في: د. عمارة، الإسلام والثورة، مرجع سابق، ص ٢٤.

(٢٧) رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن حنبل. انظر الحديث في: النووي، رياض الصالحين، ط المدينة المنورة، (د.ت)، ص ص ٨٩ - ٩٠.

(٢٨) أي لتدخله في الحق وتجبرونه عليه. انظر: المرجع السابق، ص ٩٣.

(٢٩) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجه وابن حنبل: انظر: المرجع السابق، ص ٩٣.

(٣٠) رواه الترمذي. انظر: المرجع السابق، ص ٩٢.

(٣١) رواه أبو داود والترمذي. وللحديث رواية أخرى تقول: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر».

(٣٢) انظره في: د. عمارة، الإسلام والثورة، مرجع سابق، ص ٢١.

(٣٣) المرجع السابق، ص ٢٢.

(٣٤) انظر: د. عمارة، الإسلام والثورة، مرجع سابق، ص ٢٢.

(٣٥) سورة القصص (٥) وفي تفسيرها يقول الطبري: أي نجعلهم ولاية وملوكاً، انظر: مختصر تفسير الإمام الطبري، مرجع سابق، ص ٤٣٤.

(٣٦) جاءت تلك الآية في سورة القصص عند الحديث عن قصة فرعون وموسى. انظر: المرجع السابق، ص ٤٣٤.

(٣٧) انظر: د. داود العطار، موجز علوم القرآن، مرجع سابق، ص ١٣٢.

(٣٨) من هذه القصص قصة إهلاك فرعون، وإهلاك غيره من الظلمة بالصاعقة أو بالطير الأبايل. انظر: سيد قطب التصوير الفني في القرآن، القاهرة: دار الشروق، الطبعة السادسة، ١٩٨٠، ص ص ١١٧ - ١٣٨.

(٣٩) انظر: د. محمود اسماعيل، قضايا في التاريخ الإسلامي، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٤٠) انظر: د. عمارة، الإسلام والثورة، مرجع سابق، ص ٢٤.

(٤١) انظر: المرجع السابق، ص ٢٥. ويستدل على ذلك من قوله تعالى: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ (سورة الشورى (٣٩)).